من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم الدكتور محمد احمد خلف الله

(١)

عشقت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وامرأة الوليد بن عبد الملك وصاح اليمن الشاعر المعروف ، وكان وصاح من اجمل رجالات العرب ،فكانت ترسل اليه فيدخل اليها ويقيم عندها ، فاذا خافت وارته في صندوق عندها واقفلت عليه .

ودات يوم اهدى للوليد بن عبدالملك جوهر له قيمة فأعجبه واستحسنه ، فدعا خادما له فبعث به معه الى أم البنين، وقال : قل لها ان هذا الجوهر أعجبني فآثرتك به .

دخل الخادم عليها مفاجأة ووصاح عندها ، فأدخلته الصندوق وهو يرى ، فأدى اليها رسالة الوليد ودفع اليها الجوهر ثم قال :

يامولاتي هبيني حجرا منه .

فقالت : لا يابن اللخناء ولا كرامة .

فرجع الى الوليد فأخبره .

فقال الوليد : كذبت يابن اللخناء ، وأمر به فوجئت عنقه .

ثم لبس الوليد نعليه ودخل على أم البنين وهي جالسة في ذلك البيت تمتشط ، وقد وصف له الخادم الصندوق الذي أدخلته فيه ، فجلس عليه ثم قال لها :

يا أم البنين ، ماأحب اليك هذا البيت من بيوتك ، فلم تختاريه ؟

فقالت : احسن فيه وأختاره لأنه يجمع جواهري كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب .

فقال لها : هبي لي صندوقا من هذه الصناديق .

قالت : كلها لك يا أمير المؤمنين .

قال : ما أريد كلها وانما أريد واحدا منها .

قالت له : خذ أيها شئت .

قال : هذا الذي جلست عليه .

قالت : خذ غيره فان لي فيه اشياء أحتاج اليها .

قال : ما أريد غيره .

قالت خذه يا أمير المؤمنين .

فدعا بالسيف والمرعم بحمله ، فحمله حتى انتهى به الى مجلسه فوضعه فيه ، ثم دعا عبيدا له فحفروا بئرا في المجلس عميقة ، فنحى البساط وحفرت الى الماء .

ثم دعا بالصندوق فقال : ياهذا انه بقيت شيء ان كان حقا فقد كفاك ودفاك ، ودفنا ذكرك ، وقطعنا اثرك الى آخر الدهر ، وان كان باطلا فانا دفنا الخشب ، وما أهون ذلك .

ثم قذف به في البئر وهيل عليه التراب ، وسويت الأرض ، ورد البساط الى حاله وجلس الوليد عليه .

ثم ما رئي بعد ذلك اليوم لوضاح اليمن أثر في الدنيا الى هذا اليوم .

وما رأت أم البنين لذلك أثرا في وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما .

***

(٢)

قدم ابن جامع قدمة له من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السمت ، كثير الصلاة ، قد أحدث السجود جبهته ، وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، ويلبس لباس الفقهاء ، ويركب حمارا مربعيا في زي أهل الحجاز .

فبينما هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتمس الاذن عليه وقف على ماكان يقف الناس عليه في القديم حتى يأذن لهم أو يصرفهم — اقبل أبو يوسف القاضي باصحابه أهل الفلانس ، فلما هجم على الباب نظر الى رجل يقف الى جانبه ويحادثه ، فوقعت عينيه على ابن جامع فرآه فعرفه ، فوقف الى جانبه ثم قال له :

امتع الله بك ، لوسمت فيك المحبارية والقرشية .

قال : أصبت .

قال : فمن اي قريش أنت ؟

قال : من بني سهم .

قال : فاي الحرمين منزلك ؟

قال : مكة .

قال : ومن لقيت من فقهائهم ؟

قال : سل عمن شئت .

فتاجه الفقه والحديث فوجد عنده ما أحب فاعجب به .

ونظر الناس اليهما فقالوا : هذا القاضي قد اقبل على المصلى وابو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع .

فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه .

ثم قالوا : لا ، لعله لا يعود الى مواقفته بعد اليوم ، فلم نفعله .

فلما كان الاذان الثاني ليحيى بن خالد عدا عليه الناس وعدا عليه أبو يوسف فنظر يطلب ابن جامع فرآه ، فذهب فوقف الى جانبه فحادثه طويلا كما فعل في المرة الاولى .

فلما انصرف قال له بعض اصحابه أيها القاضي ، أتعرف هذا الذي تواقف وتحادث ؟

قال : نعم ، رجل من قريش من أهل مكة من الفقهاء .

قالوا : هذا ابن جامع المصلى .

قال : انا لله .

قالوا : ان الناس قد شهروك بمواقفته وانكروا ذلك من فعلك .

ونظر اليه فتبسم .

وعرف ابن جامع انه قد اندر به ، فجاء فوقف فسلم عليه ، فرد السلام عليه ابو يوسف بغير ذلك الوجه الذى كان يلقاه به ثم انحرف عنه .

فدنا منه ابن جامع ـ وعرف الناس القصة ـ وكان ابن جامع جهيرا فرفع صوته ثم قال :

يا ابا يوسف ، مالك تنحرف عنى ؟ اى شىء انكرت ؟ قالوا لك : انى ابن جامع المغنى فكرهت موافقتى لك .

اسالك عن مسالة ثم اصنع ماشئت .

ومال الناس عاقلسوا نحوهما يستمعون .

فقال : يا ابا يوسف ، لو ان اعرابيا حلفا وقف بين يديك فانشدك بجهاء وعلطه من لسانه وقال :

يادارمية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالف الأمد

اكنت ترى بذلك باسا ؟

قال : لا ، قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الشعر قول ، وروى فى الحديث .

قال ابن جامع : فان قلت انا هكذا ، ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه .

ثم قال : يا ابا يوسف ، ما ترى فيه أو تغنيت منه ؟

قال : يا ابا يوسف ، أنت صاحب فتيا ، ما زدته على ان حسنته بالغاظى فحسن فى السماع ووصل الى القلب .

ثم تنحى عنه ابن جامع .

***

(٣)

كان عمر بن ابى ربيعة جالسا بمنى فى فناء مضربه وغلمانه حوله اذ اقبلت امرأة بررة عليها أثر النعمة ، فرد عليها عمر السلام .

فقالت له : أنت عمر بن ابى ربيعة ؟

فقال لها : انا هو ، فما حاجتك ؟

قالت له : حياك الله وقربك ، هل لك فى محادثة احسن الناس وجها ، واتمهم خلقا ، واكملهم أدبا ، واشرفهم حسبا ؟

قال : ما احب الى ذلك .

قالت : على شرط

قال : قولى

قالت : تمكننى من عينيك فاشدهما وأقودك حتى اذا توسطت الموضع الذى أريد حللت الشد ثم افعل ذلك بك عند انصرافك حتى انتهى بك الى مضربك .

قال : شأنك .

ففعلت ذلك به .

قال عمر : فلما انتهت بي الى المصرف الذي ارادت كشفت عن وجهي فاذا انا بامراة على كرسي لم ار مثلها قط جمالا وكمالا ، فسلمت وجلست .

فقالت : انت عمر بن ابي ربيعة ؟

قلت : انا عمر

قالت : انت الفاضح للحرائر ؟

قلت : انت العائل : وانشدت شعرا . ثم قالت قم فاخرج عني ، ثم قامت من مجلسها .

وجاءت المرأة فشدت عيني ثم اخرجتني حتى انتهت بي الى مصرفي وانصرفت وتركتني ، فحللت عيني وقد دخلني من الكآبة والحزن ما الله به اعلم، وبت ليلتي ، فلما اصبحت اذا انا بها .

فقالت : هل لك في العود ؟

قلت : شانك .

ففعلت بي مثل فعلها بالامس حتى انتهت بي الى الموضع ، فلما دخلت اذا بتلك الفتاة على كرسي

فقالت : ايه يا فصاح الحرائر .

قلت : بماذا ؟ جعلني الله فداك

قالت : بقولك : . . ثم قالت قم فاخرج عني ، فقمت فخرجت ،ثم رددت .

فقالت : لولا وسك الرحيل ، وخوف الفوت ، ومجيئي لحاجاتك والاستكثار من محادثتك ، لاقصيتك ، هات الآن كلمني وحدثني وانشدني . فكلمت آداب الناس واعلمهم بكل شيء ، ثم نهضت وابطات المحور وخلا الى البيت فاخذت انظر ، فاذا انا ، بانائه صغير فيه حلوق ، فادخلت يدي فيه فتحسانها في ردني ـ كمي ـ وخانت تلك المحور فشدت عيني ونهضت بي الى مصرفي ، فدعوت غلماني فقلت

ايكم يعرفني على باب مصرف عليه حلوق كانه اثر كف فهو حر وله خمسمائة درهم .

فلم البث ان جاء بعضهم فقال قم ، فنهضت معه فاذا انا بالكف طرية واذا المصرف مصرف فاطمة ابنت عبد الملك بن مروان ، فاخذت في اهبة الرحيل ، فلما تهيأت نهضت متنكرة فمضيت في طريقها بنقاب ومصرف وهيئة جميلة ، فسالت عن ذلك فقيل لها : هذا عمر بن ابي ربيعة ، فساءها امره وقالت للمحور التي كانت ترسلها اليه :

قولي له نشدتك الله والرحم أن تفضحني ويحك ، ما شانك وما الذي تريد ؟ انصرف ولا تفضحني وتشيط بدمك .

سارت المحور اليه وادت اليه ماقالت لها فاطمة . فقال :

لست بمنصرف أوتوجه اليه بقميصها الذي يلي جلدها .

فاخبرتها ففعلت ووجهت اليه بقميص من ثيابها ، فراده ذلك شغفا ، ولم يزله يسعهم لا يحالطهم حتى اذا صاروا على أميال من دمشق انصرف .